نحو التجديد الصحيح

بقلم عيسى الناعوري

بعد الحرب العالمية الاولى ، حينما قامت معركة الادب بين القديم والجديد كان الذي أثارها رغبة المجددين في مصر في تسهيل اساليب الكتابة ، ولم يكن لهم من الأهداف الحيوية ابعد من ذلك ، الا لدى الاقلين . فغاية التجديد عندهم كانت تقف عند حدود العبارة واللفظة ، ولكنها لم تكن ترمي الى مسايرة الحياة وتطور المجتمع ، ولم تكن تهدف الى ترقية الشعب واستحثاثه للنهوض . ولذلك رأينا الادب المصري — على الاخص — يدور في حلقة مفرغة من الدراسات القديمة ، او التحقيقات والشروح للكتب القديمة ، وكانت عناصر « الابداع » فيه — على اقلام دعاة التجديد — أضأل من ان ترى بالعين المجردة . فأنت ترى ان زعيم دعاة التجديد في مصر — الدكتور طه حسين — لم يزد في عنفوان ثورته التجددية على ان انصرف الى الادب القديم ، يشك في بعضه ، ويستنتج الآراء في بعضه ، ويهدم بعضه ، ويقيم انقاض بعضه ، فرأيناه يؤلف في الادب الجاهلي ، فيثير الدنيا على رأسه ، ثم يؤلف في أبي العلاء المعري ، وابن خلدون ، والمتنبي ، ولا يزيد في دروسه الجامعية ومؤلفاته الادبية على هذا النوع من التجديد . ومثل ذلك ما فعله المازني والعقاد مثلاً ، في : حصاد الهشيم ، وقبض الريح ، وابن الرومي ، وساعات بين الكتب ، وأمثالها . فاذا سألتهم : وأين حظ الحياة والشعب والمجتمع العربي — او على الاقل المصري — من هذه الدروس والتآليف ؟ فكأنما تلمح على شفاههم بسمة اشفاق .. من هذا السؤال الذي لعلهم كانوا لا يعتبرونه من خصائص الادب ، ولا من واجبات الأديب .

واما الذين لم يُغرقوا في القديم من دعاة الثورة التجديدية او الذين ساروا على نهجهم من بعدهم ، فقد اغرقوا في الابتعاد

واجفة يوم تركتم الحي الى غير رجعة كأنكم ذهبتم الى المقبرة . لقد رأيت بيتكم الجديد في العراء من بعيد كوخاً نائياً منبوذاً وكان بودّي ان آتي فأهنئكم عليه ولكنني لم استطع ان اكذب .

هدم العمال ثلاثة بيوت ، ثم توقفوا ، وبقي الركام مكانه . ومرّ زمن طويل ظهرت خلاله بعض الاصابات ، ولكن سكان المدينة رغبوا عن اخبارنا ، كأن موتانا لم يعودوا يذكرونهم . انهم سيموتون ايضاً مثلنا ذات يوم .

ها قد مرّت سنتان تقريباً على هدم بيت « عرفان » ولست اعرف الآن بالضبط كيف يعيش جيراننا القدماء الآن ، وإن كنت اتطلع الى كوخهم النائي كلما مررت على الطريق العام يوم الجمعة في مشوارٍ مسائي . اما الذعر الذي يشغل امي فلم يهدأ ، وأما ابي فما يزال يهز رأسه كمن يرى الغيب مرسوما على جدار البيت القاتم . ومن حينٍ لآخر ، كان ابي يذكر الشمس ، وضوء الشمس ، فأصرّ على أسناني . من لي بهذا القرص ، أنتزعه من قلب السماء وأثبته في جدار مطبخنا جذوة لا تخمد . أكان احمد ما نحل عوده ولا مات . أكانت عيوش ما سعلت من الصبح حتى المساء ثم اختنقت باحدى سعلاتها ورحلت عن البيت . أكان كل هؤلاء الذين ماتوا ، بقوا على وجه الأرض يحترقون ازقة الحي كل صباح الى عملهم !. إنهم ميّتون . فاذا عاد العمال ذات يوم الى حيّنا فلسوف استقبل معاولهم بصدري قبل ان ادعهم يمسّون جدران بيتنا بضربةٍ واحدة .

كانت أمي تقول : « احذر من أن تمرض يا بني » ولكن ماذا أصنع ، أنا لن أموت كما ينتظرون ، ان الردهة تملؤها الشمس كما يتمنون ، وهذه السعلات البسيطة التي تهز صدري أحياناً لم تستطع أن تهدم مني شيئاً .

كنت سمعت منذ ايام ان بنتَ « محمد فريج » مصابة وانها تموت ببطء . واليوم ، كانت الشمس حادّة ، وكنت اقف في فم الزقاق ارقب الحي كله بعين مجهدة ، واري الى صبيين ملتصقين باحد الجدران . قد تعرّضا للشمس . وأغلقا عينيهما كمن يرفع وجهه الى السماء مستحماً تحت المطر ، ثم أخذت اسعل بهدوء سعلات خفيفة متقطعة ، صارت تشتد شيئاً فشيئاً ، فوقفت دامع العينين احاول ان التقط نفساً من الهواء ، وانا احسّ ان صدري يتمزق وان معولاً يفتح في صدري غوراً ، ثم شعرت انني اريد ان ابصق ، فبصقت ، وكانت تخالط بصقتي خيوط حمراء . ولكنني كنت واهماً ولا شك ..

طرطوس

شوقي بغدادي

من رابطة الكتاب السوريين

عن ادب الواقع الاجتماعي ، وادب الشعب والحياة الاجتماعية ، وجعلوا من الأدب « ترفاً » عقلياً وفنياً مجرداً ، كما نرى لدى توفيق الحكيم ، او ابراهيم ناجي ، او شكري، او احمد رامي، او علي محمود طه ، وغيرهم .

ونلاحظ ان هذه العقلية — ولنسمها العقلية التجديدية الاولى — هي التي فرضت سلطانها على الجامعات إلى يومنا هذا في اغلب الاقطار العربية ، فأصبح تدريس الادب فيها مقصوراً على الادب القديم ، لا يتعداه الى الحديث ، او الى علاقة الادب بالمجتمع إلا في اندر الحالات . وتحاول ان تعمل نسبة احصائية للرسائل الجامعية التي تقدم كل عام في جامعات مصر وسوريا والعراق مثلاً، فاذا بين يديك ما لا يقلّ عن ٩٥٪ من الرسائل العقيمة الجافة التي تدور في فلك الادب القديم والعصور القديمة ، فلا تملك نفسك من التساؤل : « ألهذا قامت معركة التجديد منذ ربع قرن واكثر ، وشغلت الناس بامرها ؟ ».

ولكن افراداً آخرين لم يشتركوا في دعوة الجديد ولا القديم، مضوا ينتجون ادباً صحيحاً — او قريباً من الصحيح — يغترفونه من واقع الحياة ومن صميم المجتمع ، ومن بين طبقات المجتمع ، لأنهم كانوا يفهمون ان الأدب ليس مجرد لفظة او عبارة ، وإنما هو حياة .. حياة مجتمع ، وحياة شعوب ..

ونذكر من هؤلاء ، او على رأس هؤلاء ، مصطفى لطفي المنفلوطي. ونتناسى انه من حيث العبارة لم يكن عصرياً بالفعل ولم يكن من مذهب دعاة التجديد في اللفظة والعبارة ، ولكنه من حيث الجوهر والروح ، كان اقرب ادباء مصر الى الأديب الشعبي المجدد في ايامه . أما طه حسين ، مثلاً ، فانه لم يفطن الى نفسه ، وإلى واجبه كأديب يعيش مع الناس في دنيا الناس ، الا في الآونة الاخيرة ، حين اصدر (مرآة الضمير الحديث ، والمعذبون في الارض ، وبين بين) وامثالها .

والحقيقة التي لا نستطيع ان نتهرب من اعلانها ، هي ان دعوة التجديد الاولى التي قامت في مصر — وقد كانت خطوة اولية لا بد منها نحو التجديد الحقيقي الذي بدأ يتحقق الآن — والتي قدّر لها ان تنتصر وتنشر نفوذها على الاقطار العربية كلها لأن هذه الاقطار اعتادت ان تدين لمصر بالزعامة الفكرية — بالباطل أو الحق .. — لم تفعل اكثر من انها استطاعت تسهيل العبارة البيانية ، ووضعت مناهج للبحث النظري استقتها من آراء المستشرقين ودراساتهم ، واستطاع جيلها الأدبي وتلاميذه ان يوسّعوا اتصالنا بالآداب العالمية عن طريق الاقتباس والنقل والترجمة ، ولكنها حافظت على جفاف الأدب من عمق الروح وصفاء الجوهر ، وعلى قطع الصلة بينه وبين المجتمع والشعب ، فقد ظل الأديب في واد والمجتمع في واد آخر ، وظلت الجامعات تخرّج طلاباً يفهمون شعر الشنفرى وتأبط شرا وشعر المعلقات ، وتمنح مئات الشهادات العلمية العالية لرسائل جامعية خالية من الأدب والحياة ، بعيدة عن الواقعية الاجتماعية لان هذه الجامعات تعلّم الأدب « كعلم نظري » لا كشيء له علاقة بانضاج الوعي الاجتماعي ، ورفع مستوى الحياة ، وقيادة جماهير الشعب نحو النور والحياة الكريمة . ونحن لذلك نرى انصراف المثقفين من خريجي الجامعات والمدارس الثانوية عن المطالعة — لا سيما الأدبية منها — نتيجة للتحجر العقلي الذي كانوا يعانونه أثناء دراساتهم النظرية الثقيلة الممللة في الأدب القديم في الجامعات التي وضعت مناهجها على هدي العقلية التجديدية الاولى .

ولكن كل شيء يتطوّر ، ولا بد له من ان يتطور ، والادب البعيد عن مسايرة تطور الحياة ، لا بد له من ان يقف في المؤخرة ، يلهث ثم يسقط في وسط الغبار الذي تخلفه الاقدام السائرة . ولهذا كان لا بد لأدب اصحاب الدعوة التجديدية الاولى ، الادب الذي ظل اغلبه ينبع من صميم العصور الماضية، ويعيش على نبش الرمم من قبورها ، والذي اعتدنا الى اليوم ان ندرّسه وندرسه كنماذج من البيان أو أدب الانشاء ، لا كنماذج من ادب الواقع الاجتماعي كان لا بد له من ان يصبح في نظر الجمهور الواعي الجديد « رجعية » بالية تستحق الثورة ، وتستحق الانكار . واذن فلا بد من ابداع ادب جديد ، يساير الحياة الجديدة ، وتطور المجتمع العربي .

ومن اين يبدأ هذا الابداع الجديد ؟

ان تنازع المبادىء السياسية والاجتماعية في العالم على السيادة، كان لا بد له من ان ينتج مفاهيم متقاربة ، أو يتفرع عن مبدأ مشترك . ولقد اصبحت المفاهيم المشتركة بين الديمقراطية والاشتراكية ، وكذلك كانت لدى النازية والفاشستية ، — سواء أطبّقت تطبيقاً صحيحاً أم ظلت مجرد نظريات ومفاهيم يؤمن بها الجميع — تعتمد على اعطاء القيمة الاساسية للشعب . فالشعب مصدر السلطة ، والشعب مصدر التشريع ، والشعب هو الالف والياء في كل نظام سياسي أو اجتماعي في العالم .

وكل نظام يتعالى على خدمة الشعب ، او يتهرب منها ، او يبتعد عن الرجوع الى الشعب ، هو نظام يحمل معاول هدمه بيده . وما مشاريع التأمين الاجتماعي لدى الدول الديمقراطية ومشاريع التأميم للمرافق العامة فيها ، وقوانين العمل وما اليها سوى انواع من هذه المفاهيم المشتركة التي تلتقي بها المذاهب السياسية والاجتماعية المتطاحنة على السيادة ، عند حدود المجتمع والشعب ، وتصدر فيها عن ارادة الشعب ، وتهدف الى خدمته ورفاهيته ، لكسب تأييده ورضاه .

وإذا كان الشعب مصدر السلطة والتشريع ، ومصدر كل نظام في المجتمع الجديد ، فليس من المعقول ان يتخلّف الادب عن هذه النظم ، ويظل في ابراج النظريات البعيدة عن الواقع . واذن لا بد له من النزول الى صميم المجتمع ، والى معالجة قضاياه ومشاكله المتنوعة : المعاشية ، والصحية ، والاجتماعية ، والعقلية والسياسية ؛ لا بد له من النزول الى الازقة الضيقة ، والاكواخ الحقيرة ، والشوارع الموحلة ؛ لا بد له من التحسس بالجراح التي تدمى في قلوب الشعب ، والنظر في العيون الدامعة ، والوجوه الشاحبة والثياب الممزقة ؛ لا بد له من ان يفعل كل ذلك ليقدم عن حياة المجتمع الصور الصحيحة التي تساعد على الاصلاح ، وعلى التقويم والترقية . ولا بد له من ان يقود الشعب في ثورات التحرير ، ويحمل الراية في مقدمة الصفوف المندفعة الى الكرامة.

لقد اصبح الأديب — بحسب مفهوم الجيل الأدبي الجديد — لا يقاس بما في رأسه من شعر الشنفرى ، وقواعد سيبويه ، وبيان الجاحظ ، ولا بما في دماغه من نوادر العقد الفريد ونكات البيان والتبيين ، وفوائد العمدة ، والمثل السائر ، والصناعتين ، ولكن قيمته تقاس بما استطاع أن يؤدي من خدمات تهيء لرفع مستوى الشعب العقلي او الاجتماعي .

ولقد اصبح المثقفون وغير المثقفين ينظرون إلى الكاتب الذي يعيش على تقليب الكتب الصفراء والدفاتر العتيقة ، نظرهم الى إنسان يجلس على قارعة الطريق ، وينفض جرابه بحثاً عن كسر الخبز الجافة اليابسة ليقتات بها ، لأنه لا يجد سواها في جرابه . وهم لذلك يبخلون عليه بلقب الاديب ، ويعرضون عن ادبه ولو انتج لهم في كل يوم الف قصيدة مدح او هجاء او غزل ، والف مقال حول ادب النابغة او الاعشى او الحارث بن حلزة ، والف دراسة حول التصوف او الفرق الدينية ، او مذاهب اهل البصرة والكوفة في الصرف والنحو .

إن ادباء الجيل الجديد يؤمنون بالشعب ، وبأدب الشعب ، ولا يفهمون قيمة للادب بعيداً عن حياة الشعب ، وآمال الشعب ، وآلام الشعب .

وحياة الشعب العربي اليوم حياة كفاح مرير ، مع اعداء كثيرين ، في وسط صفوفه وخارج صفوفه ، حياة بؤس وشقاء ، وتشرد وحرمان . إنها حالة عامة ، لا تختلف في اي قطر عربي عن الآخر ، إلا في تفاوت نسبتها بين الارتفاع والانخفاض . ولكن هذا الشعب الممزق : الممزق الصفوف بين الطائفية والاقليمية والطبقية ، والممزق الوطن بين المستعمرين والزعامات والاسر الحاكمة ، والممزق العقائد بين المذاهب السياسية والاجتماعية ، هذا الشعب برغم تمزيقه المؤلم الذي يخشى منه كل مخلص ، يناضل ويناضل ببطولة وصبر ، ويضحي باستمرار ورضى ، ولا يتراجع مهما تطل طريقه وتنتشر فيها العقبات والاشواك . إنه يريد الحرية ، ويريد الكرامة ، ويريد العيش الآمن المريح ، يريد ان يشبع من خيرات ارضه ، ومن إنتاج يده ، ويريد ان يتصرف بشؤون بيته وحده ، كما يتصرف كل سيد حر في شؤون بيته .

وادباء الجيل الجديد هم الذين يحدونه ويهزجون له في سيره ، بل يسيرون امامه ليدلوه على الطريق ، يحملون المشاعل لتنير ، والفؤوس لتحطم الصخور وتقتلع الاشواك من طريق المواكب السائرة إلى الحرية والكرامة والعيش الآمن المريح .

عمان — عيسى الناعوري

كامل بكداش واولاده

قرطاسية وادوات المدارس والمكاتب وجميع اصناف الورق

بيروت — شارع المعرض

تلفون : ٨٤ / ٥٥